

# الفصل السادس

## النمو في محيط الأسرة

من الممكن أن يعتبر الطفل الصغير ، إبان طفولته المبكرة ، متكيفاً تكيفاً ملائماً للبيئة التي يعيش فيها . فهو يتغذى من أمه ، وينام في دعة واطمئنان ، كما تنال حاجاته كل عناية واهتمام . فالطفل السليم يظفر من أمه الموفورة الصحة ، ومن بيئته الحافلة بأسباب الدفء والراحة ، بإشباع حاجاته القليلة بمجرد ظهورها ، إذ يتوفر له الغذاء والمأوى والدفء ، وكذلك الحنان والأمن .

ولكن الصعوبات تبدأ في الظهور في أفق حياته بمجرد أن يغدو قادراً على أداء بعض الأعمال بنفسه ، فيكتشف أن ما يريد فعله قد يتعارض مع رغبات أبويه ، وعندئذ يشعر بأن مطالبهما قد تعترض السبيل في تحقيق رغباته ، فيظهر عنده الميل إلى استخدام ما يملك من قوة للتغلب على هذه الحوائث ، واستئناف ما يريد من نشاط . ولكن الخبرة تعلمه في وقت وجيز أنه ليس بعد قادراً من الناحية الجسمية على التغلب على أبويه ، كما أن حبه لهما قد يضعف من شدة ميله لمقاومة رغائبهما ، كذلك يتأثر موقفه

حياتها بطريقتيها في فرض آرائها عليه ، فمما قد يعملانه بركة وحنان مشوبين بالحزم والإصرار على ضرورة تنفيذ مطالبهما ، أو يستخدمان معه العنف ويضيقان بسوكه ، مما يزيد في استيائه وحنقه . كل هذه أمور مألوفة خصوصاً في المرحلة التي يحاول فيها الأبوان وضع بذور العادات النافعة مثل النظافة ، والصحة الشخصية ، وآداب المائدة ، وما شابه ذلك . فإذا ما أصاب السكت هذه الاتجاهات بسبب إدراك الطفل لمعنى تربيته على تلك العادات ، وقبوله لها ، فإنها قد تعاود الظهور في مراحل النمو التالية ، وتأخذ في التعبير عن نفسها في صور مختلفة من السلوك المصطبغ بأبوان العدا . ويشب الطفل في البيت على التواكل الذي يتضاءل تدريجاً بتقدمه في السن ، إذ يتعلم بمرور الزمن أداء مختلف الأعمال بنفسه ، والحصول على الإشباع الذي يريده ، على الرغم من أنه يظل معتمداً على أبويه في غذائه وكسائه ومأواه . كما يظل يتوقع الحب منهم ، ويلتمس الأمن في كنفهم . وهو يتعلم إبان هذه الفترة من حياته الكثير عن علاقاته بغيره ، فيعرف أنه لا يستطيع أن يطالب بما كان يتمتع به في طفولته كما لو كان حقاً من حقوقه ، كما يتعلم أن لسواه من أعضاء الأسرة حقوقاً مثله ، وأنه لا بد أن يلبي رغائبهم حتى يستجيبوا لهم أيضاً لمطالبه .

وقد ينجم عن ميل الطفل إلى الاستقلال بنفسه ، وإدراكه في نفس الوقت أن في وسع أبويه أن يحولوا دون ما يريد ، أن يحاول إشباع غرائزه بوسائل يعلم أنها سوف تقابل بالاستهجان . فقد يأكل أشياء يعلم أنه ما كان

ينبغي عليه أن يقرب منها ، وإذا ما اكتشفت سرقة فإنه يلجأ إلى الكذب ليتجنب العقاب . كما أنه قد يهتاج ويعنو صراخه إذا ما حيل بينه وبين فعل ما يريد ، أو يلحق الأذى بالضعف من إخوته وأخواته ، أو يتلف أشياء تخص أبويه أو الكبار من أشقائه وشقيقاته بقصد التآمر منهم . وتكون تلك الفعال تافهة في بادئ الأمر لأن مرتكبها طفل صغير ، أما في حالة الأطفال الكبار ، أو الراشدين ، فإنها تنقلب ضرباً من الجناح ، أو تغدو جرائم خطيرة . والسن التي يكون فيها الجناح تحت طائلة القانون لا تشير إلى الوقت الذي يبدأ فيه ظهور النزعات الجناحية .

وغالبا ما تكون النظرة إلى الجناح ذات جانب واحد ، في الوقت الذي ينبغي فيه أن تكون ذات جانبيين . فأجناح ارتكاب مخالفة ضد شخص من الأشخاص ، أو التمرد على سلطته ، أو اغتصاب بعض حقوقه . وهذا يثير عنده الرغبة في الانتقام عن طريق العقاب الذي يقصد به تأكيد حقوقه ، وأهميته ، وقوته . هذا هو أحد الجانبين ، وهو الجانب المألوف لكثير من الأطفال التاعسين ، كما أنه الجانب الذي لا يرى الآباء العاديون سواه — باستثناء حالات الغضب الشديد — عندما يعاقبون أبناءهم ويقولون ( السير سيريل برت ) أن تسبب الألم المباشر قد يكون ذا قيمة ، وله ما يبرره من الناحية السيكولوجية ، من حيث أنه يحول دون تحول النزعات الاندفاعية العارضة إلى عادات مكيئة ، كما أنه يؤكد حقوق الغير ، ويدرب الطفل على احترامها . أما الناحية الثانية للمسألة فهي أن الجناح وسيلة للتعبير

عن رغبة الطفل في الحصول على إشباع محروم منه ، وتلك رغبة قد تكون طبيعية ، شأنها شأن الرغبة في الحصول على الطعام عند الجوع (١) .

وقد تكون هذه الناحية من ناحيتي الجناح في حاجة إلى إيضاح .

فلذا خذ مثلاً حالة طفل كان وحيد أبويه ، فاستطاع لذلك أن يستأثر بكل حنانها ورعايتهما مدة سنتين أو ثلاث سنوات ، حتى وضعت أمه مولوداً جديداً . وعندئذ لاحظ أن سابق عناية أبويه به ، وانتباههما إليه ، قد تحولاً إلى الوليد الجديد . وهنا ينتابه الشعور الذي يحس به المتوكل عندما يرون العرش قد اغتصب منهم . فهو يحس أن حقاً من حقوقه قد أخذ منه لغير ما ذنب جناه ، فعلى من يصب لومه ؟ وإلى من يوجه استنياه ؟ إلى أمه لخياستها ؟ أم إلى المعتصب الدخيل الذي حرمه من حقه ؟ وهو كثيراً ما يسلك الطريق الثاني ، فنراه يؤذى الوليد بطرق ماكرة ، وإذا ما أقبلت أمه على صراخ ولدها ، فإن الطفل يتصنع البراءة ، وينبئها أنه ليس ثمة ما يدعو إلى بكاء أخيه ، لأنه لم يفعل له شيئاً . كذلك قد يلقي بزجاجة لبنه على الأرض لتتحطم ، فيحرمه من غذائه ومن لذة تناوله . أو أنه يخرج من عربته ، أو يدفع بالعربة وهو في داخلها إلى عرض الطريق ، أو يحاول كتم أنفاسه بإلقاء وسادة فوق رأسه . كل تلك أمثلة لفعال حدثت كثيراً . ومن المحتمل أن يكون الطفل الصغير مدركاً لخطأ ارتكابها ، ولكنه يحس في قرارة نفسه أنه قد ارتكب خطأ في حقه أيضاً . فهو يعتقد

(1) Sir Cyril Burt : Young Delinquent p. 527 ( Text and Foot - note ).

أن زوال الطفل من طريقه سوف يتيح له استعادة ما خيل إليه أنه فقدته من عطف أبويه وحبهما . ومثله في ذلك مثل الملك المخلوع الذي يعتقد أن القضاء على مغتصب عرشه تحقيق باستعادة ولاء شعبه إليه بشكل آلي . فإساءات الطفل إلى الوليد تقوم على رغبته في استرجاع حب الأبوين . وقد يتخذ سلوك الطفل صورة أخرى ، إذ يلجأ إلى المشاكسات الخرقاء ، وقد تأسف الأم على ما يبدر منه ، مؤكدة أنه كان دوماً مثال الدعة والخلق الحميد في البيت ، ولكنها لا تظمن بعد ذلك إلى ابتعاده عن نظرها . وتلك هي الغاية التي يسعى إليها من وراء مشاكساته ، فهو لا يريد ابتعاد أمه عنه ، بل يرغب في تحويل كل انتباهها إلى نفسه ، ويريد — بوجه خاص — أن تنبذ وليدها وتعنى به هو .

فالجناح في أحد مظاهره مطالبة بالحب والرعاية ، وقرينة توحى بوجود نقص في بيئة الطفل . ومن الممكن تهيئة الطفل مقدماً لمولد أخيه أو أخته ، وإشعاره بأن الوليد ينتمى إليه قدر اهتمامه إلى والديه . فقد حدث أن صبياً صغيراً كان يحاول حمل أخيه الصغير السمين عندما أشار عليه بعض من رأوه بتجنيب نفسه عناء تلك المحاولة ، لأن أخاه حمل ثقيل بالنسبة إليه . وهنا قال الصبي : « إنه ليس حملاً ، بل هو أخى » . فهذا الصبي قد تعلم شيئاً ليس في ميسور كثير من أبناء الأثرياء أن يتعلموه .

ليس من الضروري في هذا البحث أن تفصل جميع الحقائق عن جناح الطفولة ، بل يكفي أن ندرك أن لكل نوع من أنواع الجناح التي تسبق

تأقتراب المراهقة فى كثير من الحالات تاريخياً خاصاً ، يحدد الصور التى تظهر فيها ، والظروف التى تثيرها . وسنعود إلى هذه النقطة أكثر من مرة . ومن المهم أن يدرك الطفل النامى أنه يستند إلى والديه على الرغم من نمو قدرته على الاعتماد على نفسه ، واقترابه رويداً رويداً من حياة الرشد الاستقلالية . كما لا بد له أن يدرك أن أبويه مقيمان على حبهما له ، وعلى استعداد دائم للأخذ بيده ، وشد أزره ، كلما أحس الحاجة إلى ذلك . وهكذا يستطيع أن يواجه العالم بثقة هادئة واطمئنان .

وإذا كان الطفل غير متأكد من ذلك ، فقد تقوى فيه الرغبة إلى وضعه موضع الاختبار . وتلك رغبة معقولة إلى حد كبير ، ولكنها كثيراً ما تعبر عن نفسها فى صور من السلوك قل أن تبدو معقولة . فهذا غلام ينحدر من أسرة موسرة ، لم يسترح إلى مختلف المدارس الداخلية التى ألقى بها ، فأخذ يكتب الخطابات المسهبة إلى أمه ، يصف فيها ما يحسه من التعاسة ، أو بدأ يفر من المدرسة حتى يستطيع العودة إلى أحضان أمه ، لأنه بات يخشى أن يفقد ما كانت تغمره به من حنان ، إذا ما عاش بعيداً عنها . وذاك تلميذ فى مدرسة خارجية ، جم المشكلات ، خشن الطباع ، عنيف فى معاملة أساتذته ، كثير التحريض لزملائه ، دووباً على الشكوى إلى والديه من سوء ما يلقاه من معاملة لا يستحقها ، لأنه يدرك تمام الإدراك أن أبويه لا بد مهتمان ببحث الأمر مع ناظر المدرسة ، أو رفع الأمر إلى مجلس التعليم . فهو إذن يقوم باختبار قدرتهما على تأمينه ضد

صرامة العالم الذي لم يستطع التكيف له . وكل تلك دلائل واضحة على أن الطفل لم يتقدم في نموه كما ينبغي ، إذ لم يستطع الاستغناء عن الاعتماد التام على أبويه .

ويحس بعض المراهقين ، الكبار منهم والصغار على السواء ، وكذلك بعض الراشدين ، بما يسمى « الحنين إلى الوطن » ، وذلك بمجرد الانتقال إلى إحدى المدارس الداخلية أو الكليات ، أو الالتحاق بعمل في بلد بعيد . وكثيراً ما يلقون تشجيعاً على ذلك من بعض ذوى العواطف الرقيقة ، والحس المرهف ، الذين يرون ، لأسباب نجملها ، أن هذا الحنين مظهر تفضيلة في الشخص الذي يحسه ، ولا يدركون أن هذا الشخص ، في الحقيقة ناقص النمو من الناحية العقلية ، وأن حنينه هذا ليس إلا ظاهرة مرضية . ومعظم الأغاني العاطفية التي تدور حول هذا الموضوع تعبر عن مدى ما يكتنه الكثيرون من الناس من إكبار للحنين إلى الوطن . إننا لا نقصد طبعاً أن نحث المراهق على كراهة بيته ، أو عدم الشعور بالحنان نحو والديه ، والاعتراف بجميل ما بذلاه في سبيله من تضحيات ، ولكننا ننادى بأن عجز المراهق ، وقد قارب العشرين ، عن تحمل الحياة بعيداً عن الأم يعتبر حالة مرضية . ومع ذلك كثيراً ما نجد بعض طلبة معاهد التربية يرفضون بعد تخرجهم مناصب في بلاد بعيدة عن بلدهم ، بحجة أنهم لا يميلون إلى الانفصال عن أمهاتهم . وقد حدث أن حصل طالب على درجة الشرف في العلوم ، فعرضت عليه وظيفة في إحدى الكليات ، ولكنه رفض

قبولها حتى يستشير أمه فيهم . وكانت أمه سيدة رفيعة ، لم تغادر قريتها إطلاقاً ، وتجهل عن شئون العلم وحياة الجامعة وواجباتها قدر جهلها بشئون السياسة الدولية ! كذلك تصادف من حين لآخر فتيات لا يقبلن الزواج إلا بشرط السكنى إلى جوار بيوت آبائهن ، أو يشترطن أن تقيم أمهاتهن معهن في الفترة الأولى من زواجهن .

ومن اجلى أن ازدياد استقلال الطفل بنفسه يعنى في نظر الأم فقدها إياه إذ يجعلها تعتقد أنها لم تعد محور حياته واهتمامه ، وأنه قد أصبح في غير حاجة إليها كما كان من قبل عندما كان صغيراً . وهذه التضحية عسيرة على كل الأمهات ، بل ومستحيلة عند بعضهن . ولذلك يحاولن ، شعورياً أو لا شعورياً ، خلق مواقف تجعل الرباط الذى يربطن بأبنائهن ميتناً محكماً . فنجدهن الأم في بعض الأحيان تخبر ابنها بأنه سوف يفتقدها كثيراً إذا ما ابتعد عنها ، أو إذا ما وافقها منيتها ، وأن لن يجد امرأة تستطيع أن تقوم له بما كانت تقوم هي به . كما أنها قد تقيم الحوائل بينه وبين الزواج ، أو تخلق الصعاب بينه وبين كل فناة تحس بصداقته لها . أو تحاول بطريقة لا شعورية أن تجعل منه ضرورة لحياتها ، إذ تظهر عليها أعراض المرض ، مما يضطر الابن إلى الارتباط بالبيت بدافع من واجبه حيال أمه ، وعرفانه لجميلها .

إن وظيفة البيت هي إعداد الطفل ، ففيه ينمو ويترقى وتبدأ من طور التواكل إلى طور الاستقلال النسبي . فإذا وجدنا مثلاً أن الطالب الذى

قضى عامين أو ثلاثة أعوام في إحدى مدارس المعلمين لم يصبح بعد مستعداً لاحتراف مهنة التدريس ، بل أخذ يسوف الأمر من سنة لأخرى ، فإننا عندئذ نكون مصيبين إذا حكمنا بإخفاق المدرسة في إعداده لأداء وظيفته . وهذا القول يصدق على الأسرة أو البيت الذي يخفق في إعداد أطفاله لأداء وظائفهم في الحياة . فمهما كان مستوى هذا البيت ، ودرجة الثقافة بين أفراد ، ومبلغ حنان الوالدين فيه وصدق عاطفتهم ، فإنه يعتبر فاشلاً في تحقيق الغرض من وجوده .

ويتعرض القضاة لأحد مظاهر هذا الفشل عند ما يتحدثون عن صغار الخارجين على القانون ، إذ يشيرون إلى نقص « الرقابة المنزلية » ، الأمر الذي يعترف به الآباء في بعض الحالات . ويحاول الآباء أحياناً أن يلتمسوا المشورة فيما يختص بالطرق التي يحسن بهم اتباعها مع أطفالهم الذين أفلت زمامهم ، فأصبحوا عاجزين على ضبطهم . ومما يؤسف له أن « الضبط » لا يعنى في نظر الكثيرين أكثر من توقيع العقاب البدنى ، مع أن عدداً كبيراً ممن يرون هذا الرأي يعترضون على القول بأن كبح جماح الفرس يستلزم إلهاب ظهره بالسياط . والحقيقة أن الضبط يعنى التوجيه نحو الغايات المنشودة ، والإرشاد ، والإغراء ، والعقاب عند الضرورة ، على الرغم من أن العقاب ، كوسيلة من وسائل الضبط ، غالباً ما يكون اعترافاً بالفشل . وكثيراً ما نسمع الأب الذى أساء ابنه السلوك خارج البيت يقول : متعجباً « إن هذا الأمر ليدق على فهمى ، فإن ابني على أكبر جانب من حسن

« الخلق في المنزل » . وفي مثل هذه الحالات يحتاج « الخلق الحسن » إلى الاستقصاء والبحث مثل « الخلق السيء » تماماً . فقد يكون حسن الخلق عكس سوئه ، وذلك اعتراف سلمي بأن البيت لا يبسر ألواناً معينة من الإشباع ، مما يضطر الصبي إلى التعبير عنها في خارجه . ونجد في حالات أخرى أن من مظاهر اجتناعه أنه تعبير عن الرغبة في الإشباع الذي يسهل إتاحة الفرصة للحصول عليه إذا ما أدركنا أن الطفل راغب فيه .

ومن وظائف البيت في المجتمعات الحديثة إعداد الطفل لمعرفة وسائل التعامل بالمال . فإذا كان الطفل يحصل على المال كما أراد ، فإن ذلك يعود الاعتماد المستمر على أبويه ، ويحول دون استقلاله بنفسه ، إذ يميل إلى الاعتقاد بأن من واجب أبيه ، أو من يقوم مقامه من الكبار فيما بعد ، أن يزوده بكل ما يحتاج إليه من مال لتحقيق رغباته . وأن العالم ، على حد تعبير هذه الفئة من الصغار ، « مدين له بتوفير رغباته » ... كما كانت أمه « مسؤولة عن توفير غذائه عند ما كان وليداً . وهذا اتجاه طفلي لم يتخلص منه الطفل ، كما أنه لن يتخلص منه ما دام هناك من يستجيب دوماً لمطالبه . وقد دلت البحوث الحديثة التي أجريت على التلاميذ والتلميذات أن بعض الآباء يعطون أبناءهم في كثير من الحالات مبالغ كبيرة من المال كلما طلبوا منهم ذلك . وقد حدث منذ وقت قريب أن أحدى مدرسين في إحدى المدارس الثانوية رغبت في صرف ورقة مالية من فئة

الخمسة الجنيهاً ، فتطوع طالب بصرفها له على الفور<sup>(١)</sup> . وإن حصول مثل هذا الطالب ، الذي لم يكن وقتئذ قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، على خمسة جنيهاً من أبيه المشغوف بحبه ، ليتصرف فيها حسبما يترأى له ، دون أن يبذل في سبيلها من الجهود أكثر من طلبه إياها من أبيه ، يدل على أنه لم يتلقَ إعدداً قوياً فيما يختص بمعنى المال وطرق إنفاقه .

ويجد بعض الأطفال أنفسهم في موقف حرج بسبب شعورهم بأنهم أفقر من زملائهم ، لا لأن آباءهم مملقون ، ولكن لأن أولئك الآباء يعطونهم مصروفاً يومياً يقل عما يتناوله رفاقهم في نفس فصولهم . وقد يدعى الطفل أحياناً إلى مشاطرة زملائه بعض الحلوى ، وطبيعي أنه يحس أن الواجب يقضى عليه أن يدعوهم بدوره إلى تناول شيء منها على نفقته . كذلك قد يرفض الأطفال في بعض الأحيان الاشتراك في نواحي النشاط المدرسي ، لأنهم لا يملكون من المال ما يتيح لهم ذلك . واعتراف الطفل أمام أقرانه بأنه لا يملك من النقود قدر ما يملكون يولد عنده الشعور بالخزي والمهانة ، ويشير في نفسه الاستياء من أبيه . حدث ذات مرة أن طلب من إحدى التلميذات في مدرسة ثانوية أن تحضر بعض النقود في يوم معين لدفع ثمن الخيام اللازمة لبعض الأشغال اليدوية ، ولكن

(١) صادف المترجم كثيراً من الحالات الشبيهة بهذا الحادث ، عندما كان مدرساً بالمدرسة النموذجية بخدائق القبة ، يذكر منها على سبيل المثال أن تلميذاً صغيراً لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره أضع كيس نقوده يوماً أثناء لعبه . وعندما عثر على الكيس الأبيق وجد بداخله أكثر من ثلاثة جنيهاً وقلم حبر ثمين .

أم الفتاة لم تكن تعطيها مصروفاً يومياً ، لأنها تعتقد أن إعطاء الأطفال مالا يعودهم التبذير والإسراف . فكانت البنت تلم لذلك كما كانت تضطر في كثير من الأحيان إلى الانسحاب من النشاط المدرسي ، وتجنب قبول دعوات زميلات لها ، لشعورها بعدم قدرتها على دعوتهن بدورها كما هو المألوف في مثل هذه الحالات . وكانت تشعر أن رفيقاتها ينظرن إليها على أنها دونهن ، ويعتبرنها « فقيرة » وذكرت أنها سمعت بعضهن يتحدثن فيما بينهن عن إملاق أمها . وعند ما سألت أمها أن تعطيها النقود اللازمة لشراء المواد اللازمة لدروس الأشغال اليدوية ، أجابت الأم : « ليس معي الآن عملة صغيرة . سأعطيك ما تطلبين غداً . » فذهبت البنت إلى المدرسة على كره منها ، لأنها كانت تعلم أن الاعتذار عن دفع المبلغ المطلوب بعدم وجود عملة صغيرة سوف يعتبر انتحالا لعذر يقصد به إخفاء عجز أمها عن دفع النقود . وقد أبصرت في الصباح زميلة لها تضع كيس نقودها في مكان معين ، فاختطفته بسرعة ، وأخفته . وعند ما فتحنه عثرت فيه على نقود تكفي اسداد المبلغ المطلوب منها فدفعته ، ثم اشترت بما تبقى حلوى دعت زميلاتها إلى مشاطرتها إياها ، واستمتعت لأول مرة في حياتها بلذة القيام بدور المضيفة . ولكن لما كان هذا الأمر غريباً عليها ، فقد ثارت حولها الظنون ، واتجهت إليها الشبهات . ثم اضطرت أخيراً تحت الضغط إلى الاعتراف بفعلتها ، وكشف اعترافها عن التفاصيل التي ذكرناها . فاتهمت أمها بالضعف ، ووصفتها بأنها كانت أغبي من أن تفهم حقيقة

الموقف الذى بسطته لها .

وحدث فى حالة أخرى أن أباً سأل ابنه ، بعد أن أمضى فى مدرسته الجديدة قليلاً من الزمن . عن مبلغ ما يحتاج إليه من نقود لمصروفه ، واستعرض الأب مع الابن ظروف الموقف ، واتفقا على مبلغ مناسب . وقد اشترط الأب أن يدون ابنه ما يأخذه وما ينفقه ، حتى إذا احتاج إلى مبلغ آخر من النقود استطاع أن يبرر حاجته إليه . وبعد مدة من الزمن رأى الولد نموذجاً لآلة بخارية أعجبه وورغب فى شرائه ، ولكن ثمنه كان يزيد على ما تحت يده وقتئذ من النقود ، فطلب إلى أبيه أن يعيره بعض المال ، ووعدته بسداد هذا الدين مما سيوفره من مصروفه الأسبوعى . شاهد الأب النموذج ، واختبره ، وناقش ثمنه مع ولده ، ثم وافق على إعارته المبلغ المطلوب ، كما وافق على طريقة سداده . وهكذا شعر الابن أن أباه يعامله معاملة عادلة كريمة ، كما اكتسب فى نفس الوقت اتجاهاً عملياً إزاء المال ، وتعلم كيف يتعامل بصعوبة مشوبة بالمسئولية .

وفى حالة ثالثة كان أحد الآباء يفخر بأنه يعطى ابنته كل ما تطلبه منه من المال . ولكنه لم يدرك إطلاقاً أنها كانت تحس المهانة فى الذهاب إليه وطلب ما تريده ، وبسط الأسباب التى تدعوها لذلك . وبيان طريقة إنفاقها وكان الأب يعتقد أنه يتتهج سياسة حكيمة ، ولكنه غفل عن إدراك أن ما كان يستمتع به من شعور بالتفوق والكرم ، عندما يناول ابنته ثمن مشترياتها ، إنما كان على حساب ما كان ينتابها هى من شعور

بانهانة . ولذلك فإنها كانت تفضل عدم مشاركة زميلاتها في نشاطهن المدرسي ، على أن تسأل أباه ، إذا لم يكن في مقدورها أن تدفع نصيبها في ذلك . وكان من المفروض عليها أن تساعد أمها في بعض الأعمال المنزلية البسيطة ، ولكنها كانت تهرب منها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، منتحلة شتى الأعذار . وهكذا كانت المعاملة المالية سبباً في إخفاقها في التكيف للبيت والمدرسة على السواء . وأخيراً أرادت إحدى مدرساتها استقصاء حقيقة الأمر ، فتوصلت إلى معرفة هذه الحقائق . وكانت هذه المدرسة تعرف الأب الذي كان على جانب كبير من الذكاء ، وكان يعنى أشد العناية بصالح أبنائه ، فانصلت به ، وبسطت له ظروف الموقف ، واتفقت معه على حل ملائم ، إذ كان عليه أن يدفع لابنته أجراً معيناً على ما تقدمه لأبها من معونة في البيت ، في صورة مصروف منتظم تستطيع أن تنفقه كما تريد . وقد أفضى هذا إلى تحسن ملحوظ في موقف الابنة وعملها في البيت والمدرسة . فلم تكن النتيجة المنشودة إذن هي تبسيط موقف عسير معقد ، بل التدريب على الاستقلال بالنفس .

ويعصور الحلم التالي ذلك الصراع الذي يخبره الأطفال الذين قاربو المراهقة . حدث قبل بدء العطلة الصيفية أن رأى غلام في حلمه ، المرة بعد المرة ، أنه في محطة السكة الحديد ، وأن باقي أفراد أسرته ، وهم أبوه وأمه وأخته ، استقلوا القطار الذي بدأ يتحرك مغادراً المحطة وقد خلفوه وحده على الرصيف . وكان الولد يستيقظ من نومه والأسى يغمره ، كما أنه كان

يصحوا بكياً في بعض المرات . وعندما سئل عن سبب اضطرابه ذكر أن مبعثه هو تركه وحيداً .

وعندما أخذ يتكلم في صراحة ذكر أنه كان معتاداً أن يقضى العطلة مع أبويه على ساحل البحر كل عام . وكان النضيف الذي يؤمونه مكاناً بديعاً ، فكان مولعاً بالذهاب إليه . كذلك تحدث عن عطف والديه . واهتمامها البالغ براحته ومتعته . ولكنه غير من لهجة حديثه فجأة ، وقال إنه كان في استطاعته أن يزيد في استمتاعه لو أن أبويه قللا بعض الشيء من عنايتهما به ... وسمحا له باختياره وسائل متعته بنفسه ... ولو أن أخته وأمه وآباه — هكذا قال — « تركوه وشأنه » .

« فالانفراد » يعنى إذن تحرره من رقابة الأسرة وسيطرتها على جميع شئونه . والحلم يوضح بجلاء أنهم ما كانوا ليتركوه وحده إلا إذا انفصل عنهم . ولكن هذا الانفصال سيحرمه من قضاء عطلته السنوية على ساحل البحر معهم . وهكذا أخذت تتنازعه رغبتان : الرغبة في الاستمتاع بالأشياء التي يكفلها له وجوده مع أسرته من ناحية ؛ والرغبة في الحرية مقابل حرمانه من كل ذلك من ناحية أخرى . وهذا العنصر الأخير من عناصر الصراع هو الذى يدفع بالتلميذ إلى الهرب من البيت ، بينما يحفزها العنصر الأول إلى العودة إليه نادماً مستغفراً .

وهذا الصراع كما ذكرنا ترديد للصراع الذى سبق حدوثه للطفل أثناء انتقاله من مرحلة المهد إلى مرحلة الصبا ، أى من حياة التواكل التام إلى

حياة حافلة بنشاط اللعب الذي يرمى الطفل من وراثته إلى تأكيد ذاته .  
وقد تدفع الأخطاء ، وما يصحبها من ألم ، بالطفل إلى الاندفاع نحو أمه ،  
كما تشير في نفسه الرغبة إلى أن يعود وليداً كما كان من قبل . ولكن  
في وسعنا أن نعامله معاملة يمتزج فيها العطف بالتشجيع ، فلا نسرف في  
الاضطراب لما أصابه ، بل نحثه على معاودة المحاولة ، وننصح له بالالتزام  
الحرص والحذر . ومن المفيد ألا تغالي في الاهتمام بما قد يبدية الطفل من ميل  
إلى النكوص ، فلا تهيره بقولنا : « لا تكن طفلاً صغيراً » ، بل تشجعه  
بأن تقول له : إنك كدت أن تغدو غلاماً كبيراً ، فينبغي عليك أن تتصرف  
مثل الكبار من الأولاد » . وتظهر الحاجة إلى نفس هذا الاتجاه في مرحلة  
المراهقة ، إذ ينبغي علينا أن نحث المراهق على التقدم ، وفي نفس الوقت  
نعمل كل ما نراه ضرورياً لجعل هذا التقدم هيناً ، يتمشى مع قدراته وتلك  
مهمة تحتاج إلى جهد حقيقي ، شأنها في ذلك شأن نمو الفرد . ومجمل القول  
أن النجاح لا بد منه ، وقد يكون هذا النجاح عسيراً شاقاً ، ولكن لا بد  
من الظفر به في النهاية .